**محاضرات مقياس فقه اللغة / الثالثة ليسانس (السداسي السادس)**

**أ/ضامري مصطفى**

**توطئة:**

تمثل اللغة منذ العهود الأولى قناة للتواصل ووسيلة للتعبير استخدمها الإنسان في علاقاته مع أخيه الإنسان الذي كان يوجّه سلوكه ونظمه.

 ثم إنّ وظيفة اللغة ليست مجرد وسيلة للتعبير بل هي حلقة في سلسلة النشاط الإنساني المنظم، وهي جزء من السلوك البشري، وضرب من العمل تُسهم في نقل الخبرة الإنسانية، واكتشاف المعرفة، وعلى هذا الأساس فإنَّ اللغة ضرورة حتمية لتقدم الثقافة والعلم وإنتاج الحضارة.

إضافة إلى ذلك فإنّ لها علاقة وطيدة بتطور الحضارات في مشارق الأرض ومغاربها، فهي تنمو بنمو ثقافات الأمم وحضاراتهم، وتجمد بجمود أهلها.

**أولا : اللغـــــة:**

**1 ـ تعريف اللغة:**

أ**ـ لغـــــــــة :** اللغة من مادة ( ل غ و) وفعلها من باب دعا، وسعى، و رضى. وتذكر المعاجم العربية في أصل اشتقاقها رأيين متقاربين، فهي إمّا من ( لغا، يلغو، لغوا ) أي تكلم ، ومنه الحديث " من قال يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغا ". يقول الفخر الرازي في تفسيره ما بيانه **" اللغو الساقط الذي لا يتعدى به سواء كان كلام أم غيره** [[1]](#footnote-2) ، مستـدلا بقولــه تعالــى :

 لاَ يُوَْاخِذُكُم اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيمَانِكُم [[2]](#footnote-3).

يقول ابن دريد في مقصورته :

وراح للتوديع فيمن راح قد أحرز أجرا وقلى هجر اللغا

واللغا : الباطل، وفيه لغتان . لغو ولغا.

وأمّا الرواية فيقال : لغا الطائر يلغو لغو إذا صوّّت .

وجمع لغة : لغى ، لغون ، لغات .

نستنتج من هذا الرأي الأول أنّ كل الدلالات لا تخرج عن معنى الكلام الساقط الذي يتماشى وحركية الواقع الذي لا تستطيع الذات الإنسانية الانسلاخ عنه جملة وتفصيلا.

أو هي من ( لَغَيَ، يَلْغَى، لُغَة ) ، وصيغة لغة من الأسماء الناقصة فأصلها " لُغْوة " على وزن " فُعْلَة "، أو لُغَيٌ أو لَغْوٌ[[3]](#footnote-4)، والهاء فيها للعوض من الواو

**ب ـ اصطلاحا :**

 يُذكر لابن جني قوله في تعريف اللغة : **<< أمَّا حَدُها فإنَها أصواتٌ يُعبر بها كلُ قومٍ عن أغراضهم >>[[4]](#footnote-5)**. وممّا يلاحظ أنَّ ابن جني قد سبق من حيث الفكرة ـ رغم بساطة العرض ـ أقوال المحدثين، بجعله اللغة ظاهرة اجتماعية، نفسية وبشرية، تعبِر عن الغرض بأصوات محدودة من حيث الشكل، ويُفهم من الأصوات ها هنا النظرة الشاملة للغة من باب المجاز .

 وبتحليل هذا التعريف تبرز ثلاثة عناصر رئيسية في طبيعة اللغة :

أ ـ الطبيعة الصوتية للرموز اللغوية.

ب ـ أنَّ وظيفة اللغة الاجتماعية هي التعبير في أطار البيئة اللغوية.

ج ـ أنَّ اللغة تؤَدي وظيفتها في مجتمع بعينه، فلكل قوم لغتهم[[5]](#footnote-6).

 اللاحظ من هذا التحليل هو إبراز الوظيفة الحيوية للغة في المجتمع مع إيضاح أثرها على الجوانب السياسية والفكرية والحضارية فعندما يذكر ابن جني في قوله : ( يعبر بها ) أي يمثل الجانب الوجداني للغة، فاللغة هي أسرع وأدق وسيلة للتعبير يستخدمها الأفراد للوصول إلى نقطة معيَّنة، ثم يضيف قائلا: (كل قوم ) أي الجانب الاجتماعي للغة، فاللغة تعتبر ذات قيمة فعلية إلاَّ من خلال الجماعة، ( عن أغراضهم ) ويعني به الجانب النفعي للغة، فهي تساعد الفرد للوصول إلى أهدافه وتحقيق غاياته.

 و يرى الأستاذ العلايلي في هذا التعريف أنه يمثل الدور النشوئي للغة، أمَّا بعد الاكتمال فأصبحت جزءا ً من التفكير، وجعل لها الغاية المطاوعة، بمعنى التأثير والتأثر.

ويرى " ديكارت " ـ كما يروي الدكتور علمان آمين ـ :**<< بأنَّ اللغة خاصية الإنسان، بما هو حيوان ناطق أي مفكر، وبما هو حيوان مدني، أي اجتماعي ... وهي : تحقيق ناطقية الإنسان بشقيها: الفكر والعمل و من ثم تجعله أهلا لأن يكون خليفة الله في الأرض. وللناطقية عند " ديكارت" وركيزتان : ممارسة التفكير وممارسة الحياة الاجتماعية، فضلا على أنَّها سبيل الكشف عن النفس والغير والسكون ....>> [[6]](#footnote-7)**.

إنَّ اللغة في هذا التعريف هي الخاصية التي يتميز بها الإنسان عن سائر الحيوان، بواسطتها يتعاون ويتعامل أعضاء المجموعة الاجتماعية المعينة.

أمَّا عند الغربيين فكلمة لغة تقابلها في الفرنسية كلمة langage مأخوذة من كلمة logos اليونانية. ومعناها اللغة ، الفكر، العقل، والكلام ومن الكلمة اللاتينية lingua وتعني الكلام

و اللسان[[7]](#footnote-8).

ورغم تعدد المدارس والنظريات اللسانية. وبغرض الموازنة بين القديم والحديث نورد بعض المقولات:

1**ـ تعريف دي سوسير ( de saussure) :**

Un système de signe expriment des idées **>>[[8]](#footnote-9)**  **<<**

أي أنَّ اللغة نظام من الإشارات موضحة لمعاني.نجد أنَّ دي سوسير يتفق مع جماعة من العلماء على أّنَّ اللغة ظاهرة إنسانية محضة لأنها تحتاج إلى العقل والتفكير و ليس الغريزة التي يشترك فيها كل من الإنسان و الحيوان الذي لا يملك لغة؛ بمعنى الكلمة.

**2ـ تعريف مارتيني ( martinet) :**

يعرفها على أنها : **<< أداة إتصال يتم بواسطتها تحليل التجربة الإنسانية المتباينة بحسب كل فئة اجتماعية >>[[9]](#footnote-10). إ**ذناللغة عند مارتيني هي وسيلة للتواصل تعكس ماضي الإنسان عبر مراحله المختلفة .

3**ـ تعريف أوتويسبرسن (yesperson):**

**<<** **اللغة نشاط إنساني يتمثل في مجهود عضلي يقوم به فرد من الأفراد ومن جانب آخر هي عملية إدراكية يتفاعل بها الفرد وأفراد آخرين** **>>[[10]](#footnote-11)**.

و الخلاصة أن اللغة شديد الارتباط بوجود المجتمع، وأنَّه من غير الممكن إيجاد نظام لغوي منفصلاً عن جماعة إنسانية توظفه لتحقيق أغراضها، ومن تم يقول زكي نجيب محفوظ: **<< من اللغة تبدأ ثورة التجديد حيث اللغة هي الوسيلة التي لا وسيلة سواها لنشأة المعرفة الإنسانية وتكوينها تطوريها أو جمودها في بعض الحالات >>[[11]](#footnote-12).**

## تعريف علم الفقه لغة وإصطلاحاً :

* **الفقه لغة**: في اللغة العربية الفصيحة الفقه هو العلم بالشيء وفهمه ومعرفته معرفة جيدة. وقد ارتبط هذا المصطلح بعلم الدين الإسلامي لشرفه وأهمية فهمه.
* **الفقه اصطلاحاً**: هو مصطلح يطلق على العلم الذي يُعنى بفهم أحكام الشريعة الإسلامية واستنباطها من أدلتها التفصيليّة في القرآن الكريم والسنة النبوية في كل مناحي حياة المسلم بما عليه من أفعال وعبادات مكلّف بها، وهو العلم الذي يقرّر حكم الشيء بحلاله وحرامه ووجوبه وندبه وكراهيته. والفقه الإسلاميّ نظرياُ يشتمل دراسة علوم أساسية فيه، ألا وهي علم فروع الفقه، وأيضاً علم أصول الفقه، وعلم الاستدلال، وغيره.

**تعريف فقه اللغة:**

يعرف فقه اللغة اصطلاحاً على أنه العلم الذي يهتم بدراسة اللغة ذاتها وقضاياها؛ أي أنه يدرس أصواتها، وتركيباتها، ومفرداتها، وخصائصها الصوتية والنحوية والصرفية، ودلالة الألفاظ، وما بينها من علاقة، وما قد يطرأ عليها من التغييرات، كما يهتم بدراسة اللهجات، ومنشئها واحتكاكها ببعضها، وتاريخها، وما تواجهه اللغة من مشكلات وقضايا تثار حولها، وهو العلم الذي يحاول كشف أسرار اللغة ومراحل تطورها.

### تعريف علم اللغة:

يعرف العلماء علم اللغة على أنه العلم الذي يهتم بدراسة بنية اللغة، وذلك من حيث أصوات بناء الكلمات والجمل ودلالتها، كما أن علم اللغة يعنى بدراسة الفصائل اللغوية، والغوص في الاشتقاقات، والترادف، والتضاد، بالإضافة إلى النحت.

## فقه اللغة وعلم اللغة:

يعرف علم اللغة على أنه دراسة اللغة بشكل علمي، ويختص بدراسة اللهجات والأصوات في اللغة، بالإضافة إلى الدراسات المقارنة، وفقه اللغة هو الغوص في محيط اللغة لغرض لفهمها، وكشف أسرارها، بالإضافة إلى معرفة مراحل تطورها، كما أنه يضم الدراسات التي تهتم بنشأة اللغة ودلالات ألفاظها وتطورها عبر التاريخ، وهذه التعريفات هي في الغالب الأعم، وسوف نورد في هذا المقال تعريفات أوسع ونوضح الفرق بين المصطلحين.

 **2 ـ نشــــأة اللغــــة :**

لا شك أنَّ الفضل في نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى المجتمع نفسه و إلى الحياة الاجتماعية. فلولا اجتماع الأفراد بعضهم مع بعض وحاجتهم إلى التعاون والتفاهم وتبادل الأفكار والتعبير عمَّا يجول بالخواطر من معانٍ ومدركات ما وجدت اللغة.

ولم يقتصر البحث في أصل اللغة على فترة معينة بل امتدَّ إلى عهود ما قبل التاريخ ( ما يقارب 4000 سنة ).

**أ ـ نظرية الإلهام والوحي والتوقيف[[12]](#footnote-13) :**

تقرر أنَّ الفضل في نشأة اللغة الإنسانية يرجع إلى إلهام إلهي هبط على الإنسان فعلمه النطق وأسماء الأشياء ، وقد ذهب إلى هذا الرأي في العصور القديمة الفيلسوف اليوناني هيراكليت heractite ( 480 ق م)، و في العصور الوسطى بعض الباحثين في فقه اللغة العربية كابن فارس في كتابه

( الصاحبي) و ارتضاها أبو الحسن الأشعري و ابن حزم الظاهــري فـي ( الأحكام)...، وفي العصور الحديثة طائفة من العلماء على رأسها الأب لاَمِي lami في كتابــه ( فن الكلام ) ،

( l’art de parler)، والفيلسوف دبونالد vicomte de bonald في كتابه التشريع القديم[[13]](#footnote-14).

ولا يكاد أصحاب هذه النظرية يقدمون بين يدي مذهبهم دليلا عقليا يُعتَّد به، أمَّا أدلتهم النقلية فبعضها يحتمل التأويل وبعضها يكون دليلا عليهم لا لهم، فالمؤيدون لهذا الرأي من باحثي العرب يعتمدون على قوله تعالى:  و َعَلَّمَ ءَادَمَ اَلَاسْمَاءَ كُلَّهَا [[14]](#footnote-15)، وأرادوا بالأسماء ما هو أعمّ من اصطلاح النحاة .

وكذلك من أدلتهم النقلية ما جاء في سِفر التكوين (2 /19، 20) : **<<** **من أنَّ الله تعالى خلق جميع الحيوانات والطيور من طين، ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها ... فوضع آدم أسماءها** **>>**.

وعلى كل فهذه النظرية أخذت اتجاها دينيا، ربطت خلق الإنسان البديع بخلق اللغة الفذة؛ وأدى ذلك الاتجاه إلى اتجاه آخر فلسفي حاول أن يضع نظريات أخرى، على طريق يلتمس الأسباب والعلل، للوصول إلى الصواب على أسس منهجية.

**ب ـ نظرية الإتفاق والمواضعة والإصطلاح :**

وتقضي هذه النظرية بأن اللغة ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق، وارتجال ألفاظها.

وقال بها قديما : الفيلسوف اليوناني :" ديموكريت " في القرن الخامس ( ق م)، وقال بهذه النظرية \_ أيضا \_ " أرسطو" وقرر بأنها نظام لفظي محدود نشأ نتيجة اتفاق بين أفراد جماعة بعينها، وتبعته مدرسة القياسيين بزعامة " استراخوس" في القرن الثاني ، (ق م).

وهي رأي المعتزلة أيضا وعلى رأسهم " أبوهاشم الجبائي " (-321هـ ) و في العصور الحديثة الفلاسفة الإنجليز آدم سميث adam smithe وريد. Reid ودجلد ستيوارت dugald stewart [[15]](#footnote-16).

وتبقى هذه النظرية نسبية بعيدة عن الصواب ونطاق المعقول، فقد يستدل أصحـابها بقولهـم: **<<** **إنَّ أصل اللغة لابد فيه من المواضعة؛ وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا في فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء، فيضعوا لكلٍ منها سمة ولفظاً يدل عليه ويغني عن إحضاره أمام البصر، وطريقة ذلك أن يقبلوا مثلا على شخص ويومئوا إليه قائلين: إنسان، إنسان، إنسان، فتصح هذه الكلمة اسما له. وإن أرادوا سمة عينه أو يده أو رأسه أو قدمه أشاروا إلى العضو وقالوا: يدٌ، عينٌ، رأسٌ، قدمٌ...، ويسيرون على هذه الوتيرة في أسماء بقية الأشياء و في**

**الأفعال والحروف وفي المعاني الكلية والأمور المعنوية نفسها >>[[16]](#footnote-17)**. وبذلك تنشأ اللغـــة العربية مثلا.

ولكن لم يبين القائلون بهذه النظرية بوضوح كيف أمكن التواضع على الكلمات الدالة على الحروف والدالة على المعاني الكلية مع أنَّ هذه الأمور ليس لها في الخارج مدلول حسي يشير إليه المتواضعون ويسلك ابن جني طريقهم في قوله: **<<** **ثم يخطر بعد ذلك لجماعة منهم أن يضعوا كلمة " مرد " بدل إنسان وكلمة " سر " بدل رأس ... >>[[17]](#footnote-18)**.

وإذا جمعنا بين هذه الأقوال المتعددة حول وضع اللغة، فإننا نرى أنَّ أصحاب نظرية المواضعة استدلوا بأن الصلة بين الألفاظ والمعاني عرفية، فما يسمى بالشجرة كان يمكن أن يسمى باسم آخر، ومهما اجتهد علماء الاشتقاق رأيهم في خلق المناسبات، فإنَّا لا ندري لما سمي الحجر حجرًا ؟ والقمر قمراً ؟ وما جاء من علل ومناسبات بين الاسم والمسمى، فمنها ما قبل ومنها ما لم يقبل، ومنها ما لم يعلم، والألفاظ للمعاني كثيرا ما تكون متباينة، وكل ذلك يقوي نظرية الاصطلاح.

**ج \_ نظـرية المحـاكاة :**

أي محاكاة أصوات الإنسان أو الحيوان أو الطبيعة، حين قلّد الإنسان الأَصوات التي سمعها، واتخذ منها أسماء يعبر بها عمَّا يصادفه في حياته.

وذهب إلى هذه النظرية ابن جني قديما، والإنجليزي وتني( whitny) حديثا في القرن التاسع عشر . وذلك كالتأوه، والتأفف والقهقهة والنحنحة في تقليد الإنسان.

 ومثل: الصهيل، والزئير، والموء، والرغاء ... لأصوات الحيوانات.

ومثل: صرير القلم، وصليل السيف، وحفيف الشجر، وقصف الريح، وهزيم الرعد.

ومثل الأعمال التي يزاولها الإنسان: كالقط، والقدّ، والقص، والجدّ ، والجزّ، والصب...[[18]](#footnote-19)

ويرى ابن جني ذلك رأيا معقولا ومذهبا متقبلا. و لا يقال هنا إنَّ الجماد أصبح معلما للإنسان، لأن فعل الجماد غريزي، والإنسان تصرف فيه، وألهم منه.

والقصد من وراء هذه المحاكاة هو التعبير عن الشيء الذي يصدر عنه الصوت الحاكي أو عما يلازمه أو يصاحبه من حالات وشؤون.

واستخدم في هذه المحاكاة ما زُوِد به من قدرة على لفظ أصوات مركبة ذات مقاطع. وكانت لغته في مبدإ أمرها محدودة الألفاظ، قليلة التنوع، قريبة الشبه بالأصوات الطبيعية التي أخذت عنها، قاصرة عن الدلالة على المقصود، ولذلك كان لا بد لها من مساعد يصحبها فيوضح مدلولاتها ويعين على إدراك ما ترمي إليه.

وقد وجد الإنسان خير مساعد لها في الإشارات اليدوية والحركات الجسمية. وهذا المساعد الإرادي قد نشأ هو نفسه عن الحركات الفطرية التي تصحب الانفعالات. فكان في مبدإ حديث

أمره مجرد محاكاة إرادية لهذه الحركات، ثم توسع الإنسان في استخدامه فحاكى به أشكال الأشياء وحجومها وصفاتها ... وما يلي ذلك فازدادت أهميته في الحديث وسدّ فراغا كبيرا في اللغة الصوتية[[19]](#footnote-20).

ثم أخذت هذه اللغة يتسع نطاقها تبعا لارتقاء التفكير واتساع حاجات الإنسان ومظاهر حضاراته، وتستغني شيئا فشيئا عن مساعدة الإشارات وتبعد عن أصولها الأولى تحت تأثير عوامل كثيرة

كالتطورات الطبيعية التي تعتور الصوت وأعضاء النطق الإنساني وكعلاقات المجاورة والمشابهة التي تعتور الدلالات... وما إلى ذلك.

**د ـ نظرية الغريزة الخاصة :**

تقرر أن الفضل في نشأة اللغة يرجع إلى غريزة خاصة زُوِد بها في الأصل جميع أفراد النوع الإنساني، ولكن ما دور الغريزة في نشأة اللغة الإنسانية ؟

إنَّ هذه الغريزة كانت تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك حسي أو معنوي بكلمة خاصة به، كما أنَّ غريزة << التعبير الطبيعي عن الانفعالات >>، تحمل الإنسان على القيام بحركات وأصوات خاصة ( انقباض الأسارير وانبساطها، الضحك، البكاء... إلخ ) وكلما قامت به حالة انفعالية معينة ( الغضب، الخوف، الحزن، السرور...إلخ )[[20]](#footnote-21)

 وتعرف هذه النظرية أيضا بنظرية الأصوات التعجبية العاطفية interjections أو نظـرية

( pooh \_ pooh ) [[21]](#footnote-22)، واعترض على هذه النظرية \_ مع أنها تفسر بعض الألفاظ \_ بأنها توقعنا في نظرية الغرائز المعقدة. وأنَّ الأصوات الصادرة عنها فجائية منعزلة عن الكلام الذي يصدر إراديا.ويقول جسبرسن :**<<** **إنَّ الأصوات الناجمة عن تلك الانفعالات \_ كما نشاهد الآن \_**

**لا ترتبط بمظاهر النشاط اللغوي، ولكنها نشاط صوتي قد تكون بعيدة عن سياق الحديث، وخاضعة للقواعد اللغوية** **>>[[22]](#footnote-23)**.

 وأخيرا فالبرّغم من تعدد النظريات حول موضوع النشأة، لما يحمله من اختلافات، يبقى يخــص جانبا معرفيا لا يؤثر على واقع الدراسات العلمية للغة مهما تكن حقيقة هذه الفرضيات

التـي تحاول الإجابة عن التساؤلات المطروحة المتعلقة بنشأة اللغة.

وقد سبق أن زعم كثير من الأقوام بأنَّ لغتهم هي الأقدم والأشرف، وذهب بهم الإعجاب إلى أنَّ لغتهم هي الأصل وباقي اللغات هي فروع عليها، إلا أنَّ هذه الإدعاءات لا تتفق والبحث العلمي والتاريخي.

في حين تدارك كثير من العلماء هذا الخطأ وانتبهوا إلى هذا الحكم الخطير، فبادروا إلى دراسة التراث العلمي في ميدان اللغة وتابعوا التطور الذي أصابها عبر توالي القرون وتعاقب الأجيال.

**3**\_ **اللغة العربية وخصائصها :**

إنَّ اللغة العربية أشهر اللغات السامية، وقد كانت قبل الإسلام محصورة في شبه الجزيرة العربية، وبدأت تخرج من نطاق تلك الجزيرة بفعل القرآن الذي زكَّاها لغة التنزيل.

ولقد بدأت تاريخها المعروف بخصائصها المميزة في عصر قبل البعثة النبوية؛ حيث مرت بطفولة لم تصلنا، يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات : **<< ليس في مقدور الباحث اليوم أن يكشف عن أطوار النشأة الأولى للغة العربية، لأن التاريخ لم يسايرها إلا وهي في وفرة الشباب والنماء.والنصوص الحجرية التي أخرجت من بطون الجزيرة لا تزال لندرتها قليلة الغناء؛ وحدوث هذه الأطوار التي أتت على اللغة فوحَّدت لهجاتها وهذبت كلماتها معلومة بأدلة العقل والنقل** **>>[[23]](#footnote-24)**.

و قد نلاحظ الاختلاف الذي وقع بين علماء اللغات حول أولية اللغة العربية ومنشأها، ومواطنها، ومراحل طفولتها وتطورها اختلافا كبيرا مرجعه إلى صمت التاريخ أحيانا عن تسجيل ذلك

ولندرة المراجع التي يعتمد عليها من جهة ثانية، ولعدم توفر النقوش التي يعبر عليها في الحفريات الأثرية لتلقى ضوءا على هذه القضية.

يضيف الشيخ لخضر حسين \_ رحمه الله \_ : **<<** **لم يأت الباحثون عن مبدإ اللغة في أدلتهم بما تطمئن إليه النفوس ويحل منها محل القطع...** **>>[[24]](#footnote-25)**.

 ومع ذلك تنص بعض الدراسات في هذا المجال على أنَّ العربية يعود تاريخها إلى **بداية القرن الثاني الميلادي[[25]](#footnote-26)**، حيث نطقت بها قبائل عربية.

 وبفضل الترحال الذي كان سمة من سمات العربي الساعي وراء الرعي والتجارة، تولدت عنها مجموعة من اللهجات، تباينت في بعض أصواتها وبعض الدلالات حسب أفخاذ العرب، وحسب الظروف البيئية التي كان ينزل فيها العربي.

يقول شارل بلا : **<< إنَّ اللغة العربية هي نتيجة إحصاء تم خاصة في القرن الثامن الميلادي وتعلق بالقرآن والحديث والشعر القديم واللهجات التي اعتبرت هي الفصحى أي لهجات نجـد والحجاز >>[[26]](#footnote-27).**

 وقد كان التواصل بين العرب يتم عن طريق تلك اللهجات، وكان الشعر لسان القبيلة، حيث ينشد بلهجة كل قبيلة، إلا أنَّ الرواة تارة يعدلون فيه إذا رغبوا في الذيوع والانتشار، مع العلم أنه كانت الغلبة للهجة الحجاز؛ التي نزل بها أكثر القرآن.

على كل فقد أخذت هذه القبائل الخط الذي كتبوا به اللغة العربية في الأحجار واللخاف وسعف

وعلى النخيل من الأمم المجاورة لهم كالسومريين والآكاديين. وهناك رأي يقول : **<< إنه كان**

**تطوير** **الخط الهيرورغليفي، حيث كتبوا به بعض المدونات البسيطة في الشعر والنثر >>[[27]](#footnote-28)**.

ولكن كان ذلك الخط يخلو من النقط و الإعجام، وبه أسهموا في الحضارة التي بنوها أنذاك في كل من الحيرة وصنعاء واليمن والشام والحجاز؛ وهذه الأخيرة كانت الرياسة لقريش التي اشتهرت بقول الشعر والخطابة. وما بقي من آثارها الشعر الجاهلي الذي كان يتلى في الأسواق وتلك المعلقات التي كانت تعلق على أستار الكعبة لجودتها واستحسانها مجارة لحاسة السماع التي تعلقت كثيرا بأمة الشعر.

**أ\_ انتشار اللغة العربية :**

كان الحديث باللغة العربية قبل الإسلام مقصورا على الجزيرة العربية وبعض أطرافها العراقية والشامية كما هو معروف، ومع الفتح الإسلامي خرجت اللغة تسير في ركابه، ومع الانتصار في الفتوح أخذت اللغة العربية توطد أقدامها في البلاد المفتوحة، وأخذت تحل محل اللغات المحلية شيئا فشيئا، لأنها لغة الحاكمين الجدد ولأنها لغة الدين الجديد الذي آمن به كثير من الناس ، ولأنها أصبحت لغة الدواوين؛ فقد عرَّب عبد الملك بن مروان الدواوين فأصبحت العربية اللغة الرسمية[[28]](#footnote-29).

 لقد أزاحت اللغة العربية أمامها اللغتين الفارسية والسريانية في العراق وفارس، واكتسحت اللغتين الرومية والسريانية في الشام، وحلت محل القبطية الرومية في مصر، وأزالت اللغة اللاتينية من شمال إفريقيا بحيث لم يكد يمض سبعون عاما على الفتوح حتى كانت اللغة العربية اللغة العامة في جميع تلك البلاد التي تم فتحها، بغض النظر عن دخول أهلها في الإسلام أو بقائهم على أديانهم الأصلية، لأن الإسلام لم يكره أحدا من سكان البلاد المفتوحة على الدخول فيه.

وفي هذا الصدد يقول شارل بلا : **<< وقد اكتسبت العربية بفضل انتشار الإسلام الواسـع مستوى عالميا وهي تحضى بإشعاع خارق للعادة بصفتها لغة دينية أولا ولغــة حضــارة ثانيا ...>>[[29]](#footnote-30).**

إنَّ المتتبع لأحداث التاريخ عند جميع الأمم قديما ووسيطها وحديثها لا يستطيع أن يعثر على شبيه لتلك الظاهرة الغربية التي لم تتكرر في غضون التاريخ، أمم بأسرها، وأقطارها بمجموعها تترك لغاتها الأصلية أو الوافدة المستقرة التي عاشت تتكلم بها مئات السنين وتستبدل بها لغة جديدة في بضع عشرات من السنين إنه لأمر مذهل حقا لمن يتبع سيرة اللغة العربية وانتشارها المكتسح الجارف، وتظل شابة نامية حتى اليوم لم تتغير أو تتعدل أو يصيبها تحريف أو ذبول.

 ولم يكن المهتمون باللغة العربية وبخاصة من المستشرقين ليقفوا أمام انتشار اللغة العربية بهذا الشكل الفريد دون أن يصيبهم العجب والذهول يقول جورج بوست : **<<** **لغة العرب تفوق كل لغة في الإنتشار إذا نظرنا إلى اتساع الأقطار التي فيها سلطان، وهي تفوق أيضا كل لغة إذا نظرنا إلى التأثير في مستقبل الأعمال البشرية >>**[[30]](#footnote-31).

 وهذا إن دلَّ على شيء فإنه يوحي بعظمة هذه اللغة التي انتهت بها إلى أن تصبح أكثر اللغات ثروة وأقدرها على النمو و الاتساع والتطور: في الألفاظ والتراكيب والأساليب حتى نالت غاية الإعجاب والإكبار من لدن المستشرقين الذين درسوها بعمق وعرفوا كثيرا من أسرارها، كالمستشرق الألماني بركستراسر في كتابه القيم ( التطور النحوي في العربية )[[31]](#footnote-32)، والمستشرق

الفرنسي ماسينيون في عباراته التي وصف بها العربية بأنها : << اللغة الضادية المعجزة >> وغيرهما

من مشاهير المستشرقين[[32]](#footnote-33).

 ويشعرنا بسعة العربية، بعد تطورها وكثرة مفرداتها، اشتمالها \_ كما هو جلي في معجم لسان العرب لابن منظور\_ على عشرات الألوف من المواد اللغوية ، فللغة حياة ونمو، مثلما للكائنات حياة ونمو، ولذلك ألَّف اللغوي الأمريكي وتني witny سنة 1875 م كتابا في تطور اللغات ونموها سمّاه : ( حياة اللغة ونموها ).

**ب ـ فضل اللغة العربية :**

وحسبنا أن نشير هنا إلى أنَّ اللغة العربية من أحسن اللغات، لما امتازت به من فضائل وصفات جليلة ميَّزتها عن غيرها من اللغات؛ إذ يلحظ الباحث في دراستها أنها سايرت حضارة الأمة عبر مراحلها الطويلة، وذلك في عقائدها، ونظمها ، وأدابها، وفنونها ...أو بعبارة أدق في كل شأن من شؤونها ومظهر من مظاهر عزها وقوتها، بحيث استوعبت كل ذلك العطاء العريض الذي انبثق من هذه الحضارة الراقية \_الحضارة العربية الإسلامية \_ ، إذ يقول أبو منصور الثعالبي في مقدمة كتابه ( الصاحبي في فقه اللغة ) : **<< من أحب الله تعالى أحب رسوله محمداً \_ صلى الله عليه وسلم \_ ، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية التي نزل بها أفضل الكتب على أفضل العرب والعجم ومن أحب العربية عني بها وثابر عليها وصرف همته إليها...>>[[33]](#footnote-34).**

 ومن خلال هذا القول نلاحظ أنَّ اللغة العربية ارتبطت منذ البداية بذلك البعد الروحي و العقيدي الذي يمثل فيها مَعْلمًا من معالم القيم الدينية والحضارية، فليست العربيـة مجـرد ألفاظ وتراكيب

وأساليب خاوية من الروح بل هي من هذه الناحية تكاد تكون روحا خالصة لارتباطها الوثيق بالقيم الروحية.

 وجاء في ( صبح الأعشى ) : **<< أمَّا فضلها فقد أخرج ابن شيبة بسنده إلى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ( رضي الله عنه ) أنَّه قال : " تعلموا اللَّحن والفرائض فإنَّه من دينكم " قال يزيد بن هارون : " اللَّحن هو اللغة ". ولا خفاء أنها أمتن اللغات وأوضحها بيانا، وأدلقها لسانا، وأمدها رواقا ، وأعذبها مذاقا، ومن تمَّ اختارها الله تعالى لاشرف رسله، وخاتم أنبيائه، وخيرته من خلقه، وصفوته من بريته، وجعلها لغة أهل سمائه وسكان جنته، وأنزل بها كتابه المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه >>[[34]](#footnote-35)**

أي أنَّ العربية اجتمعت فيها جلّ الفضائل والصفات الربانية الجليلة وكذلك توفرت فيها خصائص داخلية لسعة مدرجها الصوتي وتواكب أوزانها وقوافيها وانسجام موسيقاها وجمعها بين الواقعية والمثالية دلالة على الثبات والخلود.

يقول الشاعر :

هَيَ ( الضَّادُ ) ما ظَفِرت أُمةٌ بِمِثـلِ جَنَـاهَا، وأطيَابِهَــا

تَعَهَـدَهَا رَبُّهـَا بالبَقَــاءْ فَهَل مُحدِبٌ فَيضَ إِ خْصَابِهَـا

تَأَلَّقَ في صَفَحَـاتِ الخُلُـودْ فَتَنجَـابُ ثَـورة حُجَابهَــا[[35]](#footnote-36)

وقد حقَّقت اللغة العربية الكثير من الغايات، وجمعت عددا من العناصر المتكاملـة التي تتمثــل

 في إظهار الأفكار بطريقة موجزة، وتوضيح الغرض المقصود كاستعمال الاستثناء أو التعارض، وقد حققت كذلك سيطرة كاملة على الفكر وأصبحت لغة العلم والثقافة.

 وعن جمال ورونق ألفاظها جاء في (البيان والتبيين): **<< وأنا أقول أنَّه ليس في الأرض كلام أمتع ولا أنق ولا ألذ في الأسماع، ولا أشدّ اتصالا بالعقول السليمة ولا أفق للسان، ولا أجود تقويما للبيان، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء ...>>[[36]](#footnote-37).**

 هذا من وجهة؛ ومن وجهة أخرى، فإنَّ اللغة العربية عرفت الانتشار والتوسع، واستطاعت أن تصبح لغة الدواوين ووسيلة للتخاطب بين الناس في عشرات قليلة من السنين على بقاع صعب تصور امتدادها على سطح الأرض، ولكنه في أن تفرض هذه اللغة نفسها على أسباب الحضارة فتكون في أقل من قرنين من الزمان لغة الآداب السامية، والعلوم المتقدمة، وتصبح لغة التأليف في التاريخ والأدب وعلوم الدين واللغة والكمياء والفيزياء والرياضيات والطب والفلك والفلك والفلسفة وغيرها من العلوم.

**<< فاللغة العربية لغة إنسانية، لأنها اللغة التي حفظت تراث الإنسان شعرا ونثرا وعلما وثقافة، وحاضرا وتاريخا >>[[37]](#footnote-38).**

 ولغتنا العربية كغيرها من اللغات هي أداة التعبير عن ذاتنا الحضارية الممتدة آلاف السنين، بما تحمله من آداب وعلوم و فنون.

وهي لغة القرآن الكريم التي أنزله الله بها للعالمين، يقول الله تعالى :  إِنَّا جَعَلنَاهُ قُْرءَانًا عَرَبِيًا

لَعَلَكُم تَعْقِلُونَ  [[38]](#footnote-39) ويقول تعالى :  وَ لَقَد ضَّرَبْْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرءَانِ مِنْ كُلّ مَثَلٍ لَعَلَّهُم يَتَذَكرُون، قُرءَانًا عَرَبِيًا غَيْر ذِي عِوَجٍ لَعَلَهُم يَتَّقُونَ [[39]](#footnote-40).

فاللغة العربية هي لغة كتاب مقدس للناس كافة، وهو الكتاب الذي تعهد الله بحفظه حيث يقول تعالى :  إِنَّا نَحْنُ نَزَّلنَا الذِكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [[40]](#footnote-41).

وحفظ الله للقرآن ثابت بالأدلة النقلية و العقلية و الواقعية، فها هو ذا كتاب الله تعالى بلغته العربية

التي نزل بها محفوظ كتابة وقراءة بأدلة لا تقبل التشكيك، **وقد حفظ الله تعالى القرآن وبه حفظ اللغة العربية في أرقى صورة للغة وأدقها من حيث الأصوات والتراكيب**.

وقد وصف الله تعالى هذه اللغة بالبيان وهو أبلغ ما يوصف به الكلام[[41]](#footnote-42) . قال الله تعالى :  خَلَقَ الانْسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ [[42]](#footnote-43)

وقد جاء في ( الصاحبي) : **<< فقدَّم جَلَّ ثناؤُه ذكر البيان على جميع ما توحد بخلقه وتفرد بإنشائه، من شمس وقمر ونجم وشجر وغير ذلك من الخلائق المحكمة والنشايا المتقنة. فلمَّا خصَّ جلَّ ثناؤُه اللسان العربي بالبيان علَّم أنَّ سائر اللغات قاصرة عنه وواقفة دونه >>[[43]](#footnote-44).**

وقد كانت القراءات القرآنية أصح طرق نقل اللغات وأدق هذه الطرق من حيث تواترها اتصال رواتها العدول، واعتمادها على الأداء والسماع والتلقي المباشر.يقول الشيخ الطاهر بن عاشور : **<< ومزية القراءات من هذه الجهة عائد إلى أنها حفظت على أبناء ما لم يحفظه غيرها، وهو تحديد كيفيات نطق العرب بالحروف في مخارجها وصفاتها وبيان اختلاف العرب في لهجات**

**النطق، بتلقي ذلك عن قراءة القرآن من الصحابة بالأسانيد الصحيحة >> [[44]](#footnote-45).**

ولهذا حُفِظت اللغة العربية حفظا يشمل الأصوات والتراكيب والقواعد، وظلَّت لغة نموذجية لا تتدهور مخارجها أو صفاتها الصوتية مع مرور الأجيال.

**ج ـ اللسان في المنظور القرآني :**

 كلمة لسان في الأصل مصطلح فيسيولوجي (langue ) يشير إلى عضو ( organe) عضلي يكسوه غشاء مخاطي، يرقد في قاع الفم، خاص بحاسة الذوق، ذو شأن هام في عمليات المضغ والبلع والكلام[[45]](#footnote-46).

وجاء تعريف اللسان في اللغة على أنه :**<< المِقوَل، جمعه ألسنة، ألسن، لسن، واللغة والرسالة والمتكلم عن القوم، والَّلسنُ، بالكسر الكلام واللغة واللسان >>[[46]](#footnote-47)**

واللسان يذكر ويؤنث؛ فمن أنثه جمعه ألسنا، ومن ذكَّره جمعه ألسنة. إذا أردت باللسان اللغة أنثت، يُقال فلان يتكلم بلسان قومه.

أمَّا اصطلاحا فيرى الزمخشري ( ت 538 هـ ) في كشافه أنَّ مفهوم لفظة " اللسان " الواردة في صورة النحل إنَّما هي على معنى اللغة؛ الأمر الذي جعل منه يفسر قوله بلسان قومه : أي بلغة قومه وقُرِئَ بلسن قومه واللسن واللسان كالريش والرَّياش بمعنى اللغة [[47]](#footnote-48).

إنَّ أدنى تأمل في واقع النص القرآني وهو يتعامل مع مفهوم" اللسان " يجعلنا ندرك إدراكا لا يشوبه شك ولا ارتياب بأنه قد ورد في سياقات مختلفة ومتنوعة.

ويذكرالفخر الرازي ( ت 606 هـ ) في تفسيره للفظة " اللسان " الواردة في سورة ابراهيم لا يخرج عن معنى اللغة المصاحبة للسان [[48]](#footnote-49)؛ لكن لربما حاول الفخر الرازي أن يلمح من بعيد إلى ذلكم الإطلاق الكائن في لفظة " اللسان " والتي جعلت هذا الإطلاق يحوي واقع الحدث اللغوي بكل ملابساته الداخلية و الخارجية سواء في المفهوم أم الجانب الإجرائي المطبق في هذا الحدث اللغوي من قبل الجماعات.

ومصطلح " اللسان" أدلَّ على " اللغة " المعينة وأفصح، لذا كُتِب له الشيوع في الدراسات الحديثة.

وإن كان هذا المصطلح نفسه معروف من بين ألفاظ القرآن للدلالة على " لغة " قوم بعينهم.

حيث يشير ابن علي الجرجاني في هذه القضية إلى قوله : **<< بأَنَّ اللسان مايقع به الإفصاح الإلهي لآذان العارفين عند خطابه \_ تعالى \_ لهم >>[[49]](#footnote-50).**

قال الله تعالى:  و مَا أَرسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إَلاَّ بِلِسَانِ قَومِهِ ليبين لَهُم [[50]](#footnote-51)، ويستدل من الآية الكريمة أنَّ " اللسان " في القوم أخصَّ من " اللغة "، وأنَّ لكل قومٍ لسانهم المتميز.

كما أنه من الواضح أنَّ هذا التخصيص القرآني في العبارة والدقة في الاصطلاح هو ذاته المعتمد في الدراسات اللغوية الحديثة.

فـ " اللسان " عندهم هو : **<< نظام من العلاقات الشفوية تخض جماعة من الأفراد يستعملونها من أجل التعبير، والتواصل فيما بينهم >>[[51]](#footnote-52).**

غير أنَّ مصطلح " اللغة " في الأوساط العريضة من متكلمي اللسان العربي ظهر غالبا على أمر مصطلح " اللسان " فلا يكاد الأخير يوجد إلاَّ في خطاب المحقق. مع أنه [ كان الخبر ] معروف الاستعمال والدلالة على أثر لغوي كالكلام أو الخطاب أو الرسالة أو الخبر عموما.

**د ـ نبذة عن خصائص اللغة العربية :**

قد توصلنا فيما قبل إلى أنَّ اللغة العربية عُرِفت بالاتساع والانتشار في فترة وجيزة، وأصبحت لغة العلم والثقافة والحضارة وذلك بفضل خصائصها ومميزاتها المتنوعة التي ساعدتها على الرقي، ومن أبرز خصائصها نذكر:

* **خصائص الحروف العربية** : تشتمل اللغة العربية على تسعة وعشرين حرفا تنقسم إلى :

ـ خمسة حروف حلقية هي :

الهمزة، الهاء، العين، الحاء، الألف.

ـ أربعة حروف شفوية :

الباء، الميم، الواو، الفاء.

ـ ثلاثة حروف من بين الأسنان، أو من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا [[52]](#footnote-53) وهي :

الظاء، الذال، الثاء.

ـ سبعة حروف أسنانية لثوية هي :

الضاد، الدال، الطاء، التاء، الزاي، الصاد، السين.

ـ ثلاث حروف لسانية لثوية هي :

اللام، الراء، النون.

ـ ثلاث أصوات غارية شجرية هي :

الشّين، الجيم، الياء.

ـ أربعة حروف طبقية لهوية هي :

الغين والخاء : أدنى الحلق ، القاف : أقصى اللسان، الكاف : أسفل من موضع القاف قليلا و مايليه من الحنك الأعلى[[53]](#footnote-54).

وهذه الحروف تستغرق المخارج الصوتية للإنسان، بحيث لا يبق صوت من أي لغة من لغات العالم يعجز العربي عن نطقه، فالجهاز الصوتي العربي بمخارجه المتعددة مؤهل لنطق أي حرف من حروف أية لغة من اللغات.

وقد تناول العقاد ذلك في إطار موضوع الحروف العربية أصلح الحروف لكتابة اللغات، فقال : **<< إنَّ الأمم التي تعتمد على الحروف العربية في كتابها أكثر عددا من كل مجموعة عالمية تعتمد في الكتابة على الحروف الأبجدية، ما عدا مجموعة واحدة، وهي مجموعة الأمم التي تعتمد في كتابتها على الحروف اللاتينية. لأنَّ الحروف العربية تستخدم لكتابة اللغة العربية، واللغة الفارسية، واللغة الأوردية، واللغة التركية، واللغة الملاوية، وبعض اللغات التي تتصل بها في الجزر المتفرقة بين القارات الثلاث : إفريقية، آسيا، استراليا >>[[54]](#footnote-55).**

وعلى هذا الاعتبار نرى أنَّ الحروف العربية أصلح من الحروف اللاتينية أضعافا مضاعفة لكتابة الألفاظ والأصوات، لأنها تؤدي من أنواع الكتابة ما لم يعهد من قبل في لغة من لغات الحضارة.

وتستخدم الحروف العربية بطبيعة الحال لكتابة لغة الضاد المميزة بمخارجها الواضحة الدقيقة بين جميع اللغات، وهي أعظم لغات الاشتقاق التي اشتهرت باسم العائلة السامية.

* **خصائص الألفاظ العربية :**

يتألف الكلام من مفردات يطلق عليها ألفاظ[[55]](#footnote-56).

والمراد باللفظ الصوت المشتمل على بعض الحروف تحقيقا نحو : محمد، علي، وتقديرا، كالضمائر المستترة في الأفعال نحو : اقرأ، فالفاعل ضمير مستتر تقديره أنت والكلمة في المفهوم اللغوي الحديث : **<< هي أصغر وحدة ذات معنى للكلام واللغة >>[[56]](#footnote-57).**

وتنقسم الكلمة إلى اسم وفعل و حرف :

يقول ابن مالك [[57]](#footnote-58)(ت 672هـ)صاحب الخلاصة المشهورة بالألفية في النحو والصرف :

كَلامُنَا لَفْظٌ مُفِيدٌ كَاسْتَقِم واسمٌ وفِعْلٌ ثُمَّ حَرفُ الكَلِم [[58]](#footnote-59)

ـ فالاسم : كلمة تدل على معنى بنفسها، وتصلح ركنا للإسناد بطرفيه فتكون مسندا ومسندا إليه : نحو : الصدق خير، فالصدق مبتدأ، والمبتدأ مسند إليه، وهو اسم، وخيرٌ : خبر ، والخبر مسند، لأننا أسندناه للصدق وخير اسم.

ـ الفعل : كلمة تدل على معنى في نفسها، وتقترن بزمان، وتصلح، للإسناد فقط فتكون مسندا إلى اسم ، نحو : جاء محمد، فلفظة جاء مسند، لأنها أسندت إلى محمد، ومحمد مسند إليه، فالفعل يكون مسندا فقط، ولا يكون مسندا إليه.

ـ الحرف : هو حرف المعنى، وهو الذي يدل معنى غير مستقل أي : يدل على معنى في غيره، نحو : على، إلى، الباء، لم، لن، من،في[[59]](#footnote-60).

وتوصف الكلمة بالفصاحة، كما يوصف بها الكلام.

والمعنى اللغوي للفصاحة هو البيان: تقول رجل فصيح وكلام فصيح أي بليغ ولسان فصيح أي طلق، وكل ما أفصح، فقد أوضح وكل واضح فصيح[[60]](#footnote-61).

* **ومن خصائص اللغة العربية أيضا الإعراب :**

والمقصود بالإعراب تغير أواخر الكلمات بتغير العوامل الداخلة عليها بالرفع والنصب والجرّ والسكون.

واللغات الحية في العالم المتمدن الآن تعد بالعشرات، ليس بينها من اللغات المعربة إلاَّ ثلاث : وهي العربية والحبشية، واللغة الألمانية والظاهر أنَّ الإعراب من خصائص التمدن القديم، لأنَّ لغات ذلك التمدن كان معظمها معربا، كذلك كانت اللغات البابلية ( الآشورية ) والعربية واليونانية واللاتينية والسنسكريتية.

واللغات التي تختلف عن تلك الأمهات جاءت عارية من حركات الإعراب .

 **<< ومما يحسن قوله** أ**نَّ اللغات السامية القديمة على كثرتها، اختصّ منها بالإعراب لغة بابل**

 **( الآشورية ) واللغة العربية، ولعل في ذلك مايدل على وحدة أصل العرب والحمورابيين، وأنَّ الأمتين كانتا أمة واحدة تتكلم لسانا واحدا معربًا >>[[61]](#footnote-62).**

ومن هنا ندرك أنَّ الإعراب يؤَدي وظيفة متعلقة باستخدام الكلمة في التعبير وجعلها في موضع الممارسة والفعل، بحيث تميزها هذه الخاصية عن سواها من اللغات الأخرى.

* **ومن خضائص اللغة العربية اتساع معجمها**، فالمعنى الواحد وضعت له ألفاظ متعددة لتكثير وسائل التفاهم ، يقول جرجي زيدان : **<< لو اقتصرنا على مراجعة المعجمات العربية وحدها، لاتَّضَح لنا هذا الناموس بأجلى بيان ... إذ نرى للمادة الواحدة أو اللفظ الواحد عدة معان متفرعة من معنى واحد، ثم يتنوع المعنى على مقتضيات الأحوال >>[[62]](#footnote-63)**

وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على سعة اللغة العربية في إنشاء المترادفات، حيث يقـول السيوطي في كتابه ( المزهر ) : **<< والمترادفة هي التي يقام لفظ مقام لفظ لمعانٍ متقاربة يجمعها معنى واحد كما يقال : أصلح الفاسد ولمَّ الشعث ورتَقَ الفَتَق وشعَب الصدع >>[[63]](#footnote-64).**

وعليه فإن من خلال المترادفات يجد المتكلم سهولة في الكلام وعدم توقف أثناء الخطاب فإذا غاب عنه لفظ كان بوسعه أن يأتي بمرادفه، حيث يقول السيوطي : **<< وهذا أيضا مما يحتاج إليه البليغ في بلاغته فيقال خطيبٌ مُصقَع وشاعرٌ مُفلَقٌ فبحسن الألفاظ واختلافها على المعنى الواحد ترصع المعاني في القلوب وتلتصق بالصدور >>[[64]](#footnote-65).**

وإذا كان المتكلم لا يستطيع النطق بكلمة كالألثغ لجأ إلى كلمة مرادفة لها كما فعل واصل بن عطاء ( ت 748 هـ ) لم يكن يحسن النطق بالراء فألقى خطبة بكاملها بدون أن يلجأ إلى الكلمات التي تحتوي على حرف الراء.

وقد أدى وجود ظاهرة الترادف في اللغة العربية إلى عصمة الخطباء والكتاب من التكرار.

يقول ابن فارس **:<< وممَّا لا يمكن نقله البتة أوصاف السيف والأسد والرمح وغير ذلك من الأسماء المترادفة. ومعلوم أنَّ العجم لا تعرف للأسد غير اسم واحد. فأمَّا نحن فنخرج له خمسين ومائة اسم >>[[65]](#footnote-66).**

إذن سعة اللغة العربية بالنسبة لجميع اللغات أمر واضح. وهذا هو المقصود من بحثنا هذا إبراز دور وعظمة هذه اللغة من بين لغات الدنيا، وقد يذهب الباحثون إلى أنَّ من يتتبع جميع اللغات لا يجد فيها لغة تضاهي اللغة العربية في سعتها.

و في مقابل الترادف نجد في اللغة العربية خاصية **التضاد**، والتضاد هو ضرب من ضروب الاشتراك إذ يطلق على المعنى ونقيضه مثال ذلك : الأزر : القوة والضعف، السبل : الحلال والحرام، الحميم:

الماء البارد والحار، المولى : السيد والعبد، الرس : الإصلاح والفساد[[66]](#footnote-67).

وهذا ما يوحي بتنوع الألفاظ الدالة على المعاني المختلفة، يقول جرجي زيدان : **<< ولعلَّ العربية أغنى اللغات في الألفاظ المعبرة عن المعاني المجردة وانفعالات العواطف... ففيها لأنواع الحب نحو عشرة ألفاظ، ومثلها للبغض والحسد والطمع وغيرها...>>[[67]](#footnote-68)**

كذلك هذا من وسائل زيادة الثروة اللغوية في العربية ، حيث يقول جرجي زيدان : **<< ومن خصائص اللغة العربية أسماء الأضداد، فإنَّ فيها مئات من الألفاظ يدل كل منهما على معنيين متضادين: مثل قولهم << قعد >> للقيام والجلوس << ونضح >> للعطش والري << ذاب >> للسيولة والجمود و<< أفسد >> للإسراع والإبطاء و << أقوى >> للافتقار أو الاستغناء >>**[[68]](#footnote-69).

* **ومن خصائص اللغة العربية أيضا الاشتقاق** : وهو من أكثر روافد اللغة وتوسعها أهمية، كما يسهل إيجاد صيغ جديدة من الجذور القديمة بحسب ما يحتاج إليه كل إنسان على نظام معين.

لنأخذ مثلا: الجذر ( س ل م) سلم معناها نجا؛ سلّم : حيا، ألقى السلام والتحية، سالم : دخل السلم، أسلم: إنقاذ وخضع، ومنها الإسلام: الخضوع لله، تسلّم : أخذ شيئا من يد غيره، السلام التحية، السلم: خلاف الحرب، سليم: صحيح غير مريض، التسليم: الرضى والقبول، الاستسلام لمس الحجر الأسود بالشفة أو باليد ( التقبيل)، وهناك مسلم ومتسلم ومسالم وغيرها مما يصعب على الحصر[[69]](#footnote-70).

وهناك بعض الاشتقاقات كالتفاعل والتفعل والإنفعال والإفتعال والإستفعال والمفاعلة مثلا لا يمكن التعبير عنها في اللغات الأعجمية عادة إلاَّ بلفظة أو أكثر.

و خصائص اللغة العربية كثيرة ومتنوعة نجملها فيما يأتي، منها التعريب والتوليد؛ فالمعرّب: هو لفظ استعارة العرب القدامى في عصر الاحتجاج باللغة من أمة أخرى، واستعملوه في لسانهم مثل: السندس، الإنجيل، الإبريق وما إلى ذلك.

المولِّد : وهو لفظ عربي البناء أعطى في اللغة الحديثة معنى مختلفا عمَّا كان العرب يعرفونه، مثل : الجريدة، المجلة، السيارة، الطيارة... إلخ.

أضِف إلى ذلك النحت : وهو إحدى خصائص العربية؛ ويعرف بأنه انتزاع كلمة جديدة من كلمتين أو أكثر تدل على معنى ما انتزعت منه كالبسملة من قولنا ( بسم الله الرحمن الرحيم )[[70]](#footnote-71).

كما تتميز العربية بتنوع الأساليب والعبارات فالمعنى الواحد يمكن أن يؤدى بتعبيرات مختلفة : كالحقيقة والمجاز والتصريح والكناية، وهي أقرب لغات الدنيا إلى قواعد المنطق بحيث أنَّ عباراتها سليمة طيعة تهون على الناطق الصافي للفكر أن يعبّر بها عما يريده دون تصنع أو تكلف.

واللغة العربية هي اللغة القومية لمائة مليون من العرب فإنها لغة الفكر والثقافة والعقيدة لألف مليون من المسلمين [[71]](#footnote-72)، وهي لم تتراجع عن أرض دخلتها لتأثيرها الناشئ من كونها لغة دين ولغة مدنية، يقول المستشرق كارلو نِلينو **:<< اللغة العربية تفوق سائر اللغات رونقا وغنى، ويعجز اللسان عن وصف محاسنها >>[[72]](#footnote-73).**

وقد ساعدها على النماء أنَّها كانت لغة السياسة والتجارة ولغة العلم والفكر قرابة ألف سنة وقد كان لها أثرها الواضح في الفارسية والتركية والهندوسانية والجاوية والملاوية وبفضل القرآن بلغت ذلك الاتساع وبفضل الإسلام حققت هذا النمو بما لم تعرفه لغة أخــرى من لغـات العالـم.

**4 ـ المهد الأول للناطقين باللغة العربية :**

كما سبق وذكرنا أنَّ اللغة العربية إحدى اللغات السامية، فإنَّ السامية تصنيف مجموعة من اللغات في أسرة لغوية واحدة اشتراك هذه اللغات في عدد من الخصائص البنيوية باعتبار هذه اللغات ترجع إلى أصل واحد تفرعت عنه، ثم تابعت خصائصها بعد ذلك على مدى التاريخ.

وتشتمل مجموعة اللغات السامية على طائفتين :

ـ اللغات السامية الشمالية : وتشمل اللغات الآكادية( accadien ) أو الآشورية البابلية ( assyro\_ babiloniennes ) ، واللغات الكنعانية ( العبرية، والفينيقية )، واللغات الآرامية.

ـ اللغات السامية الجنوبية وتشمل العربية واليمنية القديمة واللغات الحبشية السامية[[73]](#footnote-74).

أمَّا الحيز الفضائي لهذه الشعوب فقد حدده العلماء **<< بجبال آسيا الصغرى وجبال إيران والخليج الفارسي والمحيط الهندي والبحر الأحمر والبحر المتوسط إلى ميناء إسكندرون >>[[74]](#footnote-75).**

ونلاحظ أنَّ هذا النص يستثني القارة الإفريقية التي تعتبر الموطن الأصلي للساميين وهذا حسب رأي نولدكه الذي قال به سنة 1887 [[75]](#footnote-76).

غير أنَّ الكثير من الباحثين لا يأخذ بهذه النظرية ويصنف الشعوب الإفريقية ضمن المجموعة.

وما يهمنا في بحثنا هذا هو مكانة اللغة العربية بين اللغات السامية، حيث تشمل العربية المضرية الفصحى ولهجات مختلفة تكلمتها قبائل اليمن والحبشة.

والراجح في الرأي أنَّ العربية أقرب المصادر الثلاثة إلى اللغة الأم، لأنها بانعزالها عن العالم سلمت مما أصاب غيرها من التطور والتغير تبعا لأحوال العمران[[76]](#footnote-77).

 ولغات العرب على إختلافها وتعددها إنما ترجع إلى لغتين أصليتين : العربية الجنوبية والعربية الشمالية

وأول لغة من الفرع الجنوبي كان لها دور في التاريخ هي اللغة العربية الجنوبية القديمة التي عرفت قديما باسم الحميرية، وقد اكتشفت النقوش العربية الجنوبية القديمة في القرن التاسع عشر[[77]](#footnote-78).

وأمكن بعد فك رموز خطها المسند التعرف على مضمون هذه النقوش وتحليل خصائصها اللغوية وتشير الدراسات والبحوث إلى أنَّ النقوش العربية الجنوبية القديمة ترجع إلى أكثر من عشرة قرون، وعندما قلّت النقوش الجنوبية في أواخر القرن السادس الميلادي كانت العربية الشمالية قد بدأت تنتشر في المنطقة اللغوية الجنوبية.

وقد كانت المنطقة اللغوية العربية الجنوبية تضم الأقاليم الحالية لدولتي اليمن والقسم الجنوبي من المملكة العربية السعودية[[78]](#footnote-79).

وبعد انهيار سد مأرب هاجرت قبائل عربية جنوبية إلى الشمال ولم تكن القبائل المهاجرة في وضع اقتصادي طيب. ولذا تعربت بعربية الشمال، ولم يبقى لها من الأصل القديم إلا الذكرى والنسب، حتى أنَّ شعراء هذه القبائل قبل الإسلام مثل امرئ القيس نظموا شعرهم بالعربية الشمالية.

وإلى جانب هجرة القبائل الجنوبية إلى الشمال، يضاف إلى هذا أنَّ ظهور الإسلام قد ساعد على انتشار العربية الشمالية في اليمن فتعرّب جنوب الجزيرة العربية شيئا فشيئا.

أضف إلى ذلك أنَّ لغة الشمال لم تتغلب على لغة الجنوب فحسب، وإنما استطاعت كذلك أن تبرأ مما جنته عليها الأمية والهمجية من اضطراب المنطق واختلاف الدلالة وتعدد الوضع فتغلبت منها لغة قريش على سائر اللغات لأسباب دينية واقتصادية واجتماعية[[79]](#footnote-80).

**5 ـ مراحل تطور اللغة العربية :**

كما سبق أن بيّنا من قبل أنَّ اللغة العربية أرقى لغات اللغة الأم أو البنت الكبرى على حدّ تعبير أغلب الباحثين فإنَّ لغة قريش كانت أرقى لهجات اللغة العربية وهي التي نزل بها القرآن الكريم، ويرجع إلى أنَّ القبائل العربية كانت تتوارد إلى مكة في موسم الحج، وكان القريشيون يختلطون بهم فيأخذون من لغاتهم ما رقَّ وسهل، فأصبحت لغته من أعذب اللهجات العربية ألفاظا وأشملها لجميع المعاني والتصورات[[80]](#footnote-81) ويرجع مؤرخو اللغة هذا التطور إلى ثلاث مراحل :

* **التهذيب الأول** : يرجع إلى عهد إسماعيل عليه السلام فقد حدث اختلاط بين العربية والعبرية فترقت العربية.
* **التهذيب الثاني** : عهد تشعب القبائل العدنانية من ذرية إسماعيل عليه السلام، فإنَّ هذه القبائل لمَّا تباعدت بطلب العيش كثرت علاقتها واتسعت دائرة معاملاتها وطاوعتهم اللغة بما فطرت عليه من قبولها للترقي وصلاحها بلا اتساع.
* **التهذيب الثالث** : اختصت قريش بتهذيب اللغة، فإنها لمَّا كانت قائمة على سدانة الكعبة ومثابة للقبائل العربية كافة، كانوا يجتمعون في موسم الحج فيتعارفون ويتعاملون، وكانت قريش تقوم مقام المضيف فتسمع من لهجاتهم ما لم يتسن لسواها فكانت تأخذ مارقَّ من مشهور تلك اللغات[[81]](#footnote-82).

كذلك كان لموقع مكة أثر بالغ في وحدة اللغة ونهضة العرب، لأنها كانت في النصف الثاني من القرن السادس محَطًَّا للقوافل الآتية من الجنوب تحمل السلع من الهند واليمن فيبتاعها المكيون ويصرفونها في أسواق الشام ومصر[[82]](#footnote-83).

وعليه فإنَّ الأسواق كان لها دور فعَّال في توحيد اللسان العربي ، وكان العرب يقيمونها في أشهر السنة للبيوع والتسوق وينتقلون من بعضها إلى البعض، فتدعوهم طبيعة الاجتماع إلى المقارضة بالقول، والمباهاة بالفصاحة، والمفاخرة بالمحامد وشرف الأصل فكان من ذلك للعرب معونة على توحيد اللسان والعادة والدين والخلق.

إذ كان الشاعر أو الخطيب إنما يتوخى الألفاظ العامة والأساليب الشائعة قصدا إلى إفهام سامعيه وطمعا في تكثير مشايعيه والروّاة من وراءه يطيرون شعره هم القبائل وينشرونه في الأنحاء فتنتشر معه لهجته وطريقته وفكره[[83]](#footnote-84).

 وإلى ذلك كله يشير معاوية سيد بني كلاب حين يقول[[84]](#footnote-85) :

 إني امْرُؤٌ مِنَ عُصْبَةٍ مَشْهُـورَةٍ حَشَـد لَهُم مَجدٌ أَشَّم تَلِـدُ

أّلِفُوا أَبَاهُم سَيِّدا وأَعَانهُــم كَـرَمٌ وأَعمَامٌ لهُم وجُـدُدٌ

إذ كُل حَيِّ نَابِتٌ بِأَرُومَــةٍ بِنْتُ العِظَاتِ فَمَاجِدُ وكسَدُ

نُعْطِي العَشِيرَة حَقَّهَا وحَقِيقَهَا فِيهَـا ونَغْفِرُ ذَنْبَهَا ونَسُودُ

وفي هذه الأثناء أخذت شخصية هؤلاء العرب الشماليين اللغوية تنمو نموا سريعا، فتهيأت لهم بذلك الوسائل لثقافة اللسان والفكر ثم سمعوا المناطق المختلفة، وتدبروا المعاني الجديدة، ونقلــوا

الألفاظ المستحدثة، واختاروا لغتهم من أفصح اللغات، فكانت أعذبها لفظا وأبلغها أسلوبا، وأسعها مادة، ثم أخذ الشعراء يأثرونها وينشرونها حتى نزل بها القرآن الكريم فأتم لها الديوع والغلبة.

ونحن بدورنا نشير في هذا البحث إلى أهم المراحل التي مرت بها اللغة العربية، ولا ندعي أننا فصَّلنا في هذه المسألة لأنها تتطلب الكثير من الدقة، وذلك لما فيها من اختلاف الروايات وتضارب الآراء حول اللهجات والقبائل العربية قبل الإسلام .

مصادرومراجع:

ـ علم اللغة العام، توفيق محمد شاهين، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1980

ـ المولّد في العربية، د. حلمي خليل ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط8 ، 1985

ـ الخصائص ، تح : محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2،1983،1

ـ عوامل تنمية اللغة العربية، توفيق محمد شاهين، مطبعة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ط1، 1980

ـ لسان العرب، ابن منظور، تح: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان، ط1،2003، 15

ـ المعجمية العربية،ابن حويلي الأخضر ميدني، دار هومه، الجزائر، ط1، 2010. ص15

ـ نشأة اللغة عند الإنسان والطفل، علي عبد الواحد وافي، مطبعة العالم العربي، الفجالة، القاهرة، دط،1971

1. [↑](#footnote-ref-2)
2. [↑](#footnote-ref-3)
3. [↑](#footnote-ref-4)
4. [↑](#footnote-ref-5)
5. [↑](#footnote-ref-6)
6. [↑](#footnote-ref-7)
7. [↑](#footnote-ref-8)
8. [↑](#footnote-ref-9)
9. [↑](#footnote-ref-10)
10. [↑](#footnote-ref-11)
11. [↑](#footnote-ref-12)
12. [↑](#footnote-ref-13)
13. [↑](#footnote-ref-14)
14. [↑](#footnote-ref-15)
15. [↑](#footnote-ref-16)
16. [↑](#footnote-ref-17)
17. [↑](#footnote-ref-18)
18. [↑](#footnote-ref-19)
19. [↑](#footnote-ref-20)
20. [↑](#footnote-ref-21)
21. [↑](#footnote-ref-22)
22. [↑](#footnote-ref-23)
23. [↑](#footnote-ref-24)
24. [↑](#footnote-ref-25)
25. [↑](#footnote-ref-26)
26. [↑](#footnote-ref-27)
27. [↑](#footnote-ref-28)
28. [↑](#footnote-ref-29)
29. [↑](#footnote-ref-30)
30. [↑](#footnote-ref-31)
31. [↑](#footnote-ref-32)
32. [↑](#footnote-ref-33)
33. [↑](#footnote-ref-34)
34. [↑](#footnote-ref-35)
35. [↑](#footnote-ref-36)
36. [↑](#footnote-ref-37)
37. [↑](#footnote-ref-38)
38. [↑](#footnote-ref-39)
39. [↑](#footnote-ref-40)
40. [↑](#footnote-ref-41)
41. [↑](#footnote-ref-42)
42. [↑](#footnote-ref-43)
43. [↑](#footnote-ref-44)
44. [↑](#footnote-ref-45)
45. [↑](#footnote-ref-46)
46. [↑](#footnote-ref-47)
47. [↑](#footnote-ref-48)
48. [↑](#footnote-ref-49)
49. [↑](#footnote-ref-50)
50. [↑](#footnote-ref-51)
51. [↑](#footnote-ref-52)
52. [↑](#footnote-ref-53)
53. [↑](#footnote-ref-54)
54. [↑](#footnote-ref-55)
55. [↑](#footnote-ref-56)
56. [↑](#footnote-ref-57)
57. [↑](#footnote-ref-58)
58. [↑](#footnote-ref-59)
59. [↑](#footnote-ref-60)
60. [↑](#footnote-ref-61)
61. [↑](#footnote-ref-62)
62. [↑](#footnote-ref-63)
63. [↑](#footnote-ref-64)
64. [↑](#footnote-ref-65)
65. [↑](#footnote-ref-66)
66. [↑](#footnote-ref-67)
67. [↑](#footnote-ref-68)
68. [↑](#footnote-ref-69)
69. [↑](#footnote-ref-70)
70. [↑](#footnote-ref-71)
71. [↑](#footnote-ref-72)
72. [↑](#footnote-ref-73)
73. [↑](#footnote-ref-74)
74. [↑](#footnote-ref-75)
75. [↑](#footnote-ref-76)
76. [↑](#footnote-ref-77)
77. [↑](#footnote-ref-78)
78. م. ن. ص 184 [↑](#footnote-ref-79)
79. تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات. ص 16 [↑](#footnote-ref-80)
80. الموسوعة الإسلامية العربية \_ الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي. ص 23 [↑](#footnote-ref-81)
81. [↑](#footnote-ref-82)
82. [↑](#footnote-ref-83)
83. [↑](#footnote-ref-84)
84. [↑](#footnote-ref-85)